النبوة في القرآن

تأليف

الأستاذ الشيخ محمد تقي المصباح

نقله الى العربية

محمد عبد المنعم الخاقاني

اسم الكتاب :	النبوة في القرآن ١/٢
المؤلف :	محمد تقى مصباح
الناشر :	فقاهة
الطبعة :	الأولى
تاريخ الطبع :	ربيع الاول ـ ١٤٢٦
الكمية :	١٥٠٠
المطبعة :	افق
شابك :	٢ ـ ١٢ ـ ٧٩١١ ـ ٩٦٤

مركز التوزيع : قم ـ پاساژ قدس ـ الطابق الاوّل ـ رقم ٥٩ ـ تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣ـ٢٥١ـ٩٨+

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ مؤسسة البعثة تشتمل على عدّة أقسام علميّة ومن أهمّها قسم الدّراسات الاسلامية الذّي يعني بتحقيق مصادر التراث الإسلامي وقد استطاع إلى الآن إخراج المزيد من الآثار إلى عالم الطبع والنشر، وكان من بينها تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني في عشرة أجزاء وتفسير العياشي في ثلاثة أجزاء وتفسير آلاء الرحمٰن في مجلدين والافصاح للمفيد ودلائل الامامة للطبري ومجمع البحرين للطريحي في ثلاث مجلدات وغير ذلك من كتب التفسير ويليه في الأهميّة.

قسم ترجمة المتون الاسلامية وهو واحد من الأقسام التابعة إلى مؤسسة البعثة أيضاً، وقد بدأ العمل منذ انبثاق الثورة الاسلامية في ايران وقد وصل عدد اللغات التي عمل على ترجمتها إلى ثماني عشرة لغة مختلفة وكانت اللغة العربية تقف على رأس قائمة تلك اللغات ويتمتع القسم العربي بسعة اكثر، وله اصدارات ونتاجات متعددة، كان من جملتها تفسير الامثل الذي ترجم من الفارسية إلى العربية وطبع في بيروت في عشرين مجلداً من قبل مؤسسة البعثة. وقد اعربت منشورات ذوي القربى بادارة السيد يعقوب الموسوي حفظه الله عن استعدادها لطبع ونشر آثار هذه المؤسسة وقد اجزنا له ذلك شريطة أن يكون كل اثر يطبعه، وفقاً لاتفاق خاص بين هذه المؤسسة ومنشورات ذوي القربى يلاحظ فيها (حفظ حقوق المؤسسة).

نسأل الله تعالى أن يتفضّل على جميع الاخوة الذين يبذلون الجهود على طريق توسيع وانتشار الثقافة الاسلامية بالأجر الجزيل والرحمة الواسعة، إنّه سميع الدعاء.

مؤسسة البعثة

ايران ـ قم

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة السبيل والدليل

من خلال البحوث السابقة انتهينا إلى هذه النتيجة وهي أن الله تعالى قد أبدع هذا العالم بمقتضى صفاته الذاتيّة وعلى أساس فيّاضيّته ورحمانيّته، وكما استفدنا من بعض الآيات فإنّ خلق العالم الماديّ كان مقدّمة لوجود الإنسان، ولهذا أصبح الإنسان أشرف المخلوقات ومورد التكريم الإلهي، وخاصّة الإنسان التي يستطيع بفضلها أن ينـال أرفع درجات المخلوقات هي الاختيار ومقدماته، أي لمّا كان الإنسان مخلوقاً يستطيع بما زوّده الله من قدرة أن يختار ما يحبّ من بين السبل المختلفة المتوفّرة أمامه فإنّ التكليف الإلهيّ يتعلّق به، فإذا عمل حسب ما يمليه عليه ذلك التكليف فإنه سيظفر بأرفع الكمالات وسينال أكثر ألوان السعادة واللذّة دواماً.

إذن أهمّ خصائص الإنسان هو كونه مختاراً وموجوداً منتخباً. وعلى أساس انتخابه الحرّ يقطع الطريق الذي يفضّله.

وانتهينا أيضاً إلى هذه النتيجة وهي أن الحياة الدنيا مقدّمة للحياة الأبديّة الأخروية.

أي ان خاصّة الإنسان في هذه المرحلة من الحياة هي اختياره وانتخابه لمسيرته بحيث يصوغ مصيره بيده، وتأتي بعدها مرحلة الحياة الأبديّة حيث يتمتّع بنتائج أعماله التي قام بها في هذا العالم.

ولكي يستطيع الإنسان أن ينتخب الطريق الصحيح في الحياة فإنّه يحتاج إلى

القدرة على الإرادة واتخاذ القرار وقد زوّده الله بها، ويحتاج إلى الرغبات المختلفة وقد غُرست في فطرته، ويحتاج إلى وسائل القيام بالفعل وقد وُفّرت له، وبالإضافة إلى ذلك فهو محتاج إلى شرط مهمّ أساسيّ وهو معرفة الطريق الصحيح. وفي الواقع فإن الإنتخاب الحرّ لا يتمّ إلّا إذا عرف الإنسان الطرق المختلفة واطّلع على نتائجها. فلو فرضنا وجود طريقين أمام الإنسان لكنّه لا يعلم إلى أين ينتهيان به ثمّ انتخب أحدهما صدفة فإنه انتخاب أعمى، وليس انتخاباً حرّاً واعياً.

وقد أشرنا في البحث السابق إلى أن الإنسان يستطيع أن يتمتّع بمعارف مختلفة، والشيء الذي يعمّ الناس جميعاً هو المعرفة الحسيّة والمعرفة العقليّة، فلننظر إلى هذين الأمرين اللذين زوّد الله الناس جميعاً بهما أهما كافيان ليضعا تحت تصرّف الإنسان المعارف الضرورية له في مجال انتخابه؟ أيّ أن الإنسان الذي يريد أن يتحرّك في طريق سعادته الأبديّة ويقترب من كماله النهائيّ لا بدّ له في كل شوط من معرفة أمور، فهل هذه المعارف الضروريّة لكل إنسان في كل مرحلة من مراحل حياته تتوفّر له عن طريق حسّه وعقله أم لا؟

نحن نستطيع أن نثبت بطريقين أن الحسّ والعقل لا يكفيان الإنسان لانتخاب مسيرة حياته الصحيحة، إلّا أننا قبل شرح هذين الطريقين لا بدّ لنا من تقديم بعض الإيضاح للإدراك الحسيّ والعقليّ ومدى كلّ واحد منهما.

الإدراك الحسيّ والعقليّ:

ـ فالإدراك الحسيّ يحصل بوساطة الحواسّ الظاهريّة ومن خلال الإرتباط بالعالم الخارجيّ الماديّ. ويكون مدى هذا الإدراك محدوداً جدّاً، حيث لا يتعلّق الإدراك الحسيّ إلّا بالأشياء التي ترتبط بنا وفي حدود ذلك الإرتباط وفي الزمان الذي يكون فيه هذا الإرتباط قائمًا، كالمرئيات التي نشاهدها والمسموعات التي نسمعها وأمثالها. ولا شكّ أن الأشياء التي ندركها عن طريق الحس نافعة لحياتنا وضروريّة لها، ولكنّه إلى أيّ حد تكون هذه مؤثّرة في الوصول إلى الهدف النهائي؟ إنها تستطيع فقط أن

تنظّم ارتباطنا إلى حدّ ما بالحياة الماديّة، فتعلّمنا ماذا نأكل وماذا نلبس وماذا نقول ومع من نتكلم وكيف نتحدّث، وأشياء أُخرى من هذا القبيل، ونتيجةً لكون الإدراك الحسيّ ذا بُعد محدود فإنه لا ينبغي أن يُتوقع منه تزويدنا بمعرفة الطريق الصحيح في الحياة بجميع أبعاده.

ـ أمّا الإدراك العقلي، فإنّ ما يدركه العقل بمفرده وبقطع النظر عن التجربة الخارجيّة هو مجموعة من المفاهيم الكليّة الخاصّة أي البديهيّات الأوليّة (امّا أنه كيف تحصل هذه البديهيات وهل إدراكها مغروس في فطرة العقل أم يتمّ ذلك بصورة أُخرى؟ فنحن لسنا بصدد بحث ذلك هنا)، والشيء الذي نعلمه الآن هو أن العقل بأيّ صورة كان قد أدرك يتمتّع بإدراك مجموعة من المفاهيم الكليّة وكيفيّة العلاقات بينها، وهذه بذاتها لا تنفع شيئاً كثيراً في مجال تعيين مسيرة الحياة.

فعندما علمنا أن اجتماع النقيضين مستحيل أو أنّ لكل معلول علّة أو أنّ الكل أكبر من جزئه، فإن مثل هذه البديهيات الأوليّة للعقل لا تنفع بذاتها في معرفة الطريق الصحيح للحياة. وغاية ما نستطيعه هو أن نثبت بفضل هذه البديهيات مجموعة من المسائل الفلسفيّة المحضة كوجود الله تعالى.

ـ ولدينا لون آخر من الإدراكات وهو الحاصل نتيجةً للتعاون بين الحس والعقل ونستطيع تسميتها بالإدراكات التجريبيّة. أيّ أن حسّنا يدرك شيئاً فيتناوله العقل بالتجريد والتعميم ويُجري عليه التحليلات ليظفر منه بإدراكات جديدة. وهذه أيضاً ضروريّة لحياتنا الدنيويّة وتنفعها كثيراً لكنّها مشروطة بالإدراكات الحسيّة. فمعرفة العلل الخاصّة لكل ظاهرة تتمّ عن طريق الحس وبمساعدة العقل. أيّ لا بدّ ان نستغلّ حسّنا ثمّ يستفيد العقل من المعطيات الحسّيّة ويُجري عليها بعض التحليلات لنصل بالتالي إلى نتائج علميّة. وبهذه الطريقة يتمّ الحصول على قوانين العلوم التجريبيّة.

كان هذا توضيحاً مختصراً حول الحسّ والعقل والنتائج المترتبة على التعاون بينهما.

والآن نتساءل:

هل هذه الإدراكات الحاصلة عن طريق الحسّ وحده أو عن طريق العقل وحده أو نتيجةً للتعاون بين الحس والعقل كافية لمعرفة الطريق الصحيح للحياة في جميع أبعاده وشؤونه وفي جميع الأزمنة والأمكنة أم لا؟

قلنا إنّ لدينا طريقين نستطيع أن نثبت بهما أن هذه الإدراكات غير كافية:

١ـ الطريق التجريبي: أيّ أننا نستطيع إثبات هذا الموضوع بالتجربة وعن طريق التعاون بين الحس والعقل بهذا البيان:

لقد خُلق الإنسان منذ آلاف السنين وعاش على وجه هذه الأرض، وليست لدينا معلومات دقيقة عن تلك الأزمنة الأولى البعيدة عنّا، إلّا أنه منذ ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً توجد في أيدينا بعض الأفكار البشريّة المنظّمة والمدوّنة. فالعلماء بذلوا جهوداً واسعة واستغلّوا ما لديهم من حسّ وعقل ليتعرفوا على بعض المسائل ويبحثوها ويسجّلوها بصورة مسائل علميّة وقوانين حقوقيّة وأخلاقيّة وغيرها. ففي مجال معرفة الطبيعة أحرز الإنسان تقدّماً واسعاً يوماً بعد يوم، ونلاحظ في العصر الراهن أن كثيراً من مجهولات الطبيعة قد كشفته دراسات العلماء، ونستطيع أن نطّلع على ذلك بسهولة، وغالباً ما تكون هذه المسائل واضحة وقابلة للفهم والتجربة بحيث لا يختلف فيها الباحثون كثيراً.

أمّا في المسائل العمليّة، وفي أسلوب السلوك في الحياة، وفي موضوع القيم فإن الواقع خلاف ذلك. وكذا في الأمور الميتافيزيقية ومسائل ما وراء الطبيعة فلا تزال مغلّفة بألوان من الإبهام عند كثير من المجتمعات البشريّة، ولعلّه يمكن القول إن أغلب المحافل العلمّية اليوم لا تُعير أهميّة لهذه المسائل الميتافيزيقيّة، وهي عاجزة عن إيجاد حلول لها.

والشيء المهمّ في بحثنا هو تلك المعارف المعلّقة بسلوك الإنسان وقيمه: كيف يجب أن يتصرّف الإنسان في حياته؟ وبأيّ شكل لا بدّ ان ينظّم علاقاته بسائر الناس؟

وقد كانت هذه المسائل مطروحة أمام الناس دائمًا، وقد أُنفقت على حلّها جهود عقليّة هائلة، ولكنّه كما نعلم فإن أفكار العلماء والمفكرين لم تتّحد في حلّها خلال أيّ مرحلة تأريخية، وإنّما كانت الخلافات فيها تتّسع يوماً بعد يوم. والآن وبعد أن قطع الإنسان أشواطاً عديدة في مجال العلم والمعرفة فاننا نلاحظ العلماء يضعون الدساتير للحياة ثمّ يتأملون قليلًا فيظهر لهم نقصها ويحاولون إصلاحها أو تغييرها. فالقانون يوضع ثمّ لا يمرّ عليه وقت طويل حتى تضاف إليه الملحقات ثمّ يُنسخ بكامله بعد مرور فترة عليه.

ومن خلال هذه النظرة التي القيناها على مسيرة الفكر الإنسانّي في مجال الأعمال والسلوك والقيم نصل إلى هذه النتيجة وهي أن الإنسان طيلة تاريخ علمه ومعرفته قد عجز عن حلّ هذه المسائل، وتعدّ هذه العلامة واضحة على قصور الحسّ والعقل عن إيجاد حلول لمثل هذ ه المواضيع.

وهذا هو الطريق التجريبي لإثبات نقص الحس والعقل. لكنّ هذا الأسلوب ليس متقناً ولا يبعث على الاطمئنان، ولأنه قد يحتمل شخص أن يتقدم الإنسان في هذه المجالات خلال القرون اللاحقة وبعد مرور آلاف السنين ليظفر بمعارف يقينيّة في هذا المضمار.

٢ـ وهذا الطريق هو أن نقوم بتقييم الحسّ والعقل وكيفيّة نشاطهما لنعرف هل يمكن أن نتوقّع حلّ مسائل الحياة بمساعدة الحسن والعقل أم لا؟

كما أشرنا من قبل فإن الحسّ لا يستطيع أن يبيّن لنا إلّا الظواهر الجزئيّة المحدودة بالظروف الزمانيّة والمكانيّة الخاصّة وسائر المحدوديّات الأُخرى.

وبناءً على هذا فإن الحس ليس قادراً بمفرده على حلّ وتبيين المسائل القيميّة ولا سيّما علاقة سلوك الإنسان بنتائجه الأخرويّة.

والعقل وحده عاجز أيضاً عن تحقيق هذا الأمر، فالبديهيات الأوليّة للعقل محدودة جدّاً، ونحن نواجه في كل يوم بل في كل ساعة مئات العلاقات مع الناس ومع أنفسنا ومع الله، وبأفراد عائلتنا وبالبيئة المحيطة بنا، ولا بدّ أن يكون لنا حكم في كل

واحدة منها، بينما البديهيّات العقليّة محدودة جدّاً ولا تستطيع تقديم حلول لهذه المسائل والعلاقات.

وكـذا التعاون القائم بين الحسّ والعقل فهو وإن كان مؤدّياً إلى سعة نطاق معلومات الإنسان إلاّ أنّه يمتدّ في حدود تجربة الإنسان، فنحن نستطيع أن نُخْضع الظواهر الماديّة للتجربة ونتعرّف على عللها الماديّة، وأمّا الأُمور اللا ماديّة فإن شِباك التجربة لا تصطادها حتى نستطيع أن نثبت بالتجربة علاقات المادة بغير المادة أيضاً.

وأخيراً ـ وهو الأهمّ واعتمادنا عليه ـ كيفيّة ارتباط هذا العالم بالعالم الأبديّ، فإنّه ليس لدينا أيّ سبيل لمعرفة ظواهر الآخرة، فلا حسّنا وحده ولا عقلنا بمفرده يستطيع أن يعرف الظواهر الأخرويّة، ولا التعاون بين الحس والعقل قادر على توضيح حقائق ذلك العالم. وما دمنا غير عالمين بنوعيّة تأثير حياتنا في الحياة الآخرة، وأيّ عمل يتمتّع بعلاقة إيجابيّة مع السعادة الأخروية وأيّ عمل يتميز بعلاقة سلبيّة معها فاننّا لا نستطيع أن نصوغ حياتنا في شكل صحيح ولا نستطيع أن نضع لها منهجاً ومخططاً سليمًا. ولا يتمّ وضع هذه المناهج والقيم إلاّ في ظلّ تعيين العلاقة بين الفعل ونتيجته، وما لم نعرف هذه العلاقة فانّنا لا نستطيع أن نقول: لا بدّ من فعل هذا الفعل، ولا ينبغيَ فعل ذلك الشيء. وقد أوضحنا في محلّه أنّ هذه الأوامر والنواهي تحصل من العلاقة بين الفعل ونتيجته، فما لم نعرف النتيجة ولم نجرّب تأثير هذا الفعل من ظهور تلك النتيجة فإننا لا نستطيع أن نصدر حكمًا بالنسبة إليه. وبشكل عام لّما كان عالم الآخرة وعلاقاته بهذا العالم من جملة الأُمور الخارجة عن نطاق الحس والتجربة فإنّنا لا نستطيع أن نعرفها ونبيّنها بشكل كامل. وعلى أساس هذه الرؤية فنحن عاجزون عن تنظيم منهج صحيح لحياتنا في هذا العالم.

وبعد أن عرفنا أنّ الحسّ والعقل عاجزان عن تعيين منهج دقيق للحياة بحيث يؤمّنـان للإنسان سعادته وكماله الأخرويين الأبديين، نقوم بضمّ مقدّمة أُخرى لهذا الموضوع وهي:

إنّ الله ـ الذي خلق هذا الإنسان بهذه الإدراكات المحدودة وبهذه الخصائص

التي تعرّفنا عليها لحدّ الآن وقد خلقه من أجل أن ينال سعادته الأبديّة عن طريق أعماله الاختياريّة ـ لو لم يزوّده بالمعارف اللازمة لذلك فإنّ فعله تعالى يصبح لغواً وعبثاً.

وقد انتهينا في البحوث السابقة إلى هذه النتائج وهي ان الله تعالى خلق الإنسان في هذا العالم حتى يصوغ مصيره الأبديّ بسلوكه الاختياريّ. وتتمّ أعماله الاختياريّة في ظلّ المعرفة الصحيحة والدقيقة، ولا يمكن الحصول على مثل هذه المعرفة من خلال الإدراكات البشريّة العاديّة، فهو إذن قد خلق الإنسان ليختار وهو أيضاً لم يضع تحت تصرّف الناس بشكل عام مثل هذه المعارف، وهو عبث،تعالى الله عنه علّوا كبيراً.

ونذكر لهذا مثالاً بسيطاً وهو: إذا دعا إنسان شخصاً آخر إلى بيته وأصرّ عليه كثيراً حتى انتهى به الأمر إلى تهديده بالعقوبة إن لم يأته لكنّه لم يدلّه على طريق البيت ولم يزوده بعنوانه وانّما قال له لا بدّ أن تتعرّف عليه بنفسك. في أيّ مدينة يكون هذا البيت؟ لا يدري. بأيّ وسيلة لا بدّ من الذهاب إليه؟ ليس معيّناً. من الذي يسأله في هذا المجال؟ لا أحد يعرف. ومع ذلك لا بدّ أن يزور بيته. إنّ هذا حقّاً لتصرّف سفيه.

فإذا كان الإنسان قد خُلق من أجل هدف قطعاً ولا بدّ أن يصل إليه، ووصوله إليه يجب أن يكون عن معرفة وأن يقطع هذا الطريق باختياره فإنه يلزم تزويده بمعرفته. أيّها الإنسان لا بدّ أن تذهب إلى الجنّة فقد خلقتك لها لتظفر بألوان الرحمة اللا نهائيّة في الآخرة، وهذا هو الهدف من خلقك لكنني لا أدلّك على طريق ذلك. هل يتعرّف الإنسان عليه إذا استخدم تفكيره؟ كلا! هل يوجد أحد نسأله ليدلّنا عليه؟ كلا! ومع ذلك فهو لا بدّ له من الوصول إلى ذلك المقصد.

إنّ مثل هذا الفعل عبث حتماً.

فالحكمة الإلهية إذن تقتضي أن توضع تحت تصرّف الإنسان المعارف اللازمة لذلك. ولا بدّ أن يعيّن له طريقاً يستطيع الإنسان من خلاله أن يتعرّف على الهدف وعلى كيفيّة الوصول إليه، وليس هذا إلّا طريق الوحي والنبوّة.

وبهذا البيان تثبت ضرورة النبوّة وضرورة تعيين الطريق الخارج عن قدرة عامّة

الأفراد.

والآن هل يوضع هذا الطريق تحت تصرّف الجميع أم لا؟

لو كان موضوعاً تحت تصرّف الجميع لاطّلعنا عليه أنا وأنت، فكلّما احتجنا إلى شيء أرسلنا برقيّة إلى العالم الآخر نسأله عمّا يجب أن نفعل، لكنّنا نعلم إنّ مثل هذا الارتباط ليس متوفّراً لجميع الناس بسبب نقص استعدادهم، ولهذا فإن الحكمة الإلهيّة تقتضي أن يُخلق الناس بشكل بحيث يظهر من بينهم أشخاص يُفهِم الله الحقائقَ للناس عن طريقهم ويعيّن لهم منهج حياتهم.

ملاحظة:

إنّ هذين الطريقين اللذين استخدمناهما لإثبات قصور استعداد الإنسان يتفاوتان في النتيجة. فلو كان عندنا الطريق الأوّل فحسب لاستطعنا أن نستنتج منه فقط انّه لمّا كان الله قد خلق جميع الناس للسعادة وقد مرت على الإنسان آلاف السنين اثبتت فيها التجربة أنه لا يستطيع معرفة الطريق الصحيح بملكاته العادية، فالحكمة الإلهيّة تقتضي أن يكون الله سبحانه قد جعل للإنسان طريقاً آخر يعرف به المقصود.

أمّا فيما بعد كيف يكون الأمر؟

لمّا كان من المحتمل ان يتكامل العقل البشريّ فيتمكن تدريجياً من معرفة الطريق بنفسه فإننا لا نستطيع أن نثبت بهذا البرهان ضرورة النبوة للأزمنة اللاحقة بصورة يقينيّة. وأقصى ما يمكن إثباته عندئذ هو: أنّ العقل البشريّ لمّا كان ناقصاً لحدّ الآن فمن المستحيل ان يترك الله كل تلك الملايين التي خلقها طيلة هذا التأريخ الممتدّ من دون دالّ على الطريق، لأنّ ذلك مخالف للحكمة الإلهية. امّا بعد هذا كيف تجري الأمور؟

إن هذا البرهان لا قدرة له على اثبات ذلك، لأننا لم نستطع على أساس

التجـربة السابقة ان نتنبأ بأنه في المستقبل أيضاً سوف لن تتكامل عقول الناس بحيث تستطيع أن تخطّط مستقلّة لحياتها، وكان من الممكن أن يحتمل شخص تكامل العقل البشري في المستقبل إلى الحدّ الذي يستطيع فيه التخطيط للحياة مستقلاً.

وهذا يشبه ما قاله البعض حول كون الإسلام ناسخاً للأديان السابقة وكون الرسول الأكرم (ص) خاتم الرسل، حيث زعموا ان الإنسان كان ناقص العقل إلى القرن السادس الميلادي وكان كالطفل بحاجة إلى من يمسك يده ويسير معه خطوة بعد خطوة، وكان الوحي والنبوة في الواقع كالمربّية لهذا الطفل تساعده إلى ان يصل إلى مرحلة الاستقلال في الحياة، ولكنّ العقل البشري قد تكامل في القرن السادس الميلاديّ فلا حاجـة له بعـدئذ إلى الوحي ولهذا فهو مطالب بالنهوض على قدميه وتشخيص طريق الحياة والسير فيه مستقلاً، ومن هنا فقد استغنى عن إرسال نبي جديد إليه، وذلك بسبب تكامل عقله.

أجـل لو أردنـا ان نستدّل بهذا الشكل لكان هناك احتمال لتكامل العقل البشريّ في المستقبل.

ومن الواضح ان هذا الاستنتاج ليس صحيحاً حتى على أساس هذه المقدّمة، لانّنـا نلاحظ مرور أربعة عشر قرناً بعد القرن السادس الميلادي ومع ذلك توجد نقائص كثيرة في العقل البشري وهناك أُمور عديدة لا تزال مهمة عند من لم تستنر حياته بنور الوحي والنبوّة، وهي ليست أقلّ مما كانت عليه في السابق، بل يمكن القـول أن هؤلاء المتـأخرين أصبحوا أضلّ وأشدّ انحرافاً من المتقدمين من حيث الاخلاق والقيم الرفيعة، وإذا لم يكونوا أكثر تأخّراً منهم فعلى الأقل لم يتقدّموا عليهم في هذا المجال، وعلى كل حال نستطيع القول: إن التاريخ يدل على أنه لحدّ الآن كان العقل البشري قاصراً باستمرار عن معرفة المنهج الدقيق الصحيح للحياة بشكل مستقل، فالحكمة الإلٰهية إذن تقتضي أن يتم إرشاده خلال جميع هذه المراحل بواسطة الـوحي والنبوّة، ولكنّه على أُسس هذا البرهان التجريبي لا يمكن القول بصورة قطعيّة أن العقل البشري سوف لن يتكامل في المستقبل، فلعلّ شخصاً يقول انني

احتمل أن يتكامل العقل البشري بعد مئة قرن بحيث يستطيع إدراك المسائل العمليّة بوضوح وأن يحلّ جميع الاختلافات. ونحن عاجزون عن التنبؤ بما سوف يحدث بعد مئة قرن من الآن. ومع هذا الاحتمال لا يمكن الحكم على المستقبل، وإن كنّا نحن لسنا بحاجة إلى هذا لأننا نعتقد بأنّ الوحي سوف لن ينزل في المستقبل وإنّ هذا الكتاب السماويّ الذي يمثّل آخر مراحل النبوّة يكفي البشريّة إلى يوم القيامة، إلّا أن هذا الاحتمال يشكّل ضرراً بالتالي لأنه يقول قد يأتي يوم يتكامل فيه العقل البشري ويتمكّن من معرفة الطريق الصحيح من دون استعانة بالتعبّد.

وأمّا بحسب الطريق الثاني الذي حلّلنا فيه مدى الإدراكات الإنسانيّة وقيّمناها فانّنا تستطيع القول بصورة يقينيّة أن الإنسان لم يستغن وسوف لن يستغني اطلاقاًعن الوحي، لأن معرفة المنهج الدقيق للحياة متوقّفة على معرفة علاقة أعمالنا الاختياريّة بنتائجها الأخروية، والحس والعقل عاجزان في أيّ وقت عن اكتشاف هذه العلاقات بشكل دقيق، لأنها خارجة عن نطاق التجربة الإنسانيّة. إذن على أساس هذا الطريق نستطيع أن نثبت بصورة يقينيّة للماضي والحاضر والمستقبل أنه لو لم يكن هناك وحي ولم توضع نتائجه تحت تصرف الإنسان لأصبح فعل الله عبثاً ولغواً.

إنّ هذا في الواقع هو أتقن البراهين التي يمكن اقامتها على ضرورة النبوّة وأمتنها، وقد ذكر الفلاسفة والمتكلمون المسلمون براهين أُخرى في كتبهم لكنّنا نرى أن ما ذكرناه أكثر اتقاناً منها، ولهذا نكتفي به، ولا نطيل البحث بذكر سائر البراهين.

وللقرآن الكريم بيانات حول إرسال الرسل وإنزال الكتب بحيث يمكن القول ان هذا البرهان مستنبط منها، ومن جملتها:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

أيّ أرسلنا للناس رسلاً يبشّرونهم بالنتائج الطيّبة لأعمالهم الصالحة وينذرونهم

(١) النِّسَاء: ١٦٥.

بالنتائج الوخيمة لأعمالهم السيئة حتى لا تبقى للناس حجّة على الله بعد مجيء الرسل، أي لو لم يبعث الرسل لكان للناس أن يحتجّوا ويقولوا: لقد انتخبنا العمل السيّء لأننا لم نكن نعلم المقصود، وامّا بعد مجيء الرسل فقد تمّت الحجّة عليهم.

وما قلناه من أن ذلك البرهان يمكن استنباطه من هذه الآية الكريمة فهو بهذه الصورة:

لو كان الحسّ والعقل والتعاون بينهما كافياً لمعرفة الطريق الصحيح، فعندما يحتجّ الناس ويقولون نحن لم نعرف أن هذا الطريق رديء أو أن ذلك الفعل حسن فإن الله يستطيع أن يجيبهم قائلاً لقد زوّدتكم بالعقل ووسائل التشخيص. فإن قالوا لم يكن لدينا جميعاً فرصة للدراسة والتحقيق، أجيبوا بأنّه كما في الأمور الطبيعيّة يتخصّص مجموعة من العلماء لدراستها والأخرون يستفيدون من نتائجها فكذا في هذا المجال كان عليكم أن تفعلوا مثله. بينما يقول الله تعالى ما لم نرسل الرسل فإن الحجّة غير تامّة على الناس. أن نفس هذا القول شاهد على أن القرآن الكريم لا يرى ملكات الإنسان العاديّة كافية لمعرفة الطريق الصحيح للحياة.

ومثل هذا المضمون يرد في آيات أُخرى أيضاً، من جملتها قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِأَيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾[٢].

إنّه في الواقع احتجاج على الحكمة الإلهيّة: أنت الذي خلقتنا أكان هدفك من خلقنا هو أن نُبتلى بهذا الذل والخزي؟ إن هذا خلاف الحكمة فلا يمكن أن تريده لنا، وأنت تعلم أيضاً أن عقولنا ليست كافية لمعرفة الطريق الصحيح، إذن لماذا لم ترسل

(٢) طه: ١٣٣ و ١٣٤.

رسولاً حتى ينجينا من هذا المصير السيّء؟

والقرآن يعدّ هذا الاحتجاج صحيحاً ولهذا يؤكّد إننا أرسلنا الرسل حتى لا يقـولوا مثل هذا القول. أيّ لو لم نرسل لكان من حقّكم أن تعترضوا علينا بهذا الاعتراض. ومتى يكون لكم حقّ الاعتراض ؟ إذا كانت ملكات الإنسان العادية غير كافية لمعرفة الطريق الصحيح بدقّة.

إذن، فالقرآن الكريم يرى أن نقص العقل والحسّ في معرفة الطريق الصحيح للحياة يمكن رفعه بواسطة الوحي والنبوّة، فيتحقّق كل ما تقتضيه الحكمة الإلهية ويتمّ الغرض الإلهيّ من الخلق عندئذ.

النبوّة في القرآن

توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدور حول النبوّة ومعلّقاتها، ولا نستطيع أن نتناولها جميعاً في هذه الدراسة، ولهذا فسوف نختار المباحث المهمّة المستنتجة من هذه الآيات ونوضّح بعض الآيات المتعلّقة بها.

فمسألة النبوّة في القرآن الكريم كانت مطروحة منذ بدء خلق الإنسان، والحياة الإنسانيّة في هذه الدنيا مبنيّة على أساس الهداية التشريعيّة، والتسليم بهذا الأمر واضح بالالتفات إلى الهدف من خلق الإنسان في هذا العالم. فإذا عرفنا ان السبب في إيجاد الإنسان في عالم المادّة هو أن تكون مسيرته اختياريّة حتى يصوغ مصيره بمحض إرادته فمن الطبيعيّ أن يتحتّم تبيين الطريق له من قبل الله، ولهذا الطريق جهتان إحداهما جهة الكمال والأُخرى جهة النقص، احداهما تنتهي إلى السعادة والأُخرى تنتهي إلى الشقاء، ثمّ هو يختار أيّاً منهما بإرادته الحرّة.

ولدينا آيات تؤكّد على أنّه لمّا أُمر آدم (ع) بالهبوط إلى الأرض فقد اوحى إليه بوجوب التسليم للهداية عند ما تأتيه من قبل الله، فمن سلّم وعمل بها فسوف يصل إلى السعادة ومن رفضها فسوف يلقى الشقاء:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

(١) البَقَرَة: ٣٨ و ٣٩.

فالخطاب موجّه لآدم وحوّاء (ع) وإبليس لعنه الله، وهذا يعني أنّه منذ بدء خلق آدم على وجه الأرض (أو نزوله فيها) كان هذا الموضوع واضحاً لديه وهو أنّ أمامه طريقين، ويتمّ التعيين من قِبل الله.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى:

﴿قَالَ ٱهبطَا مِنْهَا جَميعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾[٢].

والظاهر أنّ الخطاب موجّه لآدم وحوّاء (ع)، ولعلّه موجه لآدم (ع) وإبليس بقرينة قوله تعالى بعد ذلك ﴿بعضُكم لبعضٍ عَدوّ﴾.

ويقول سبحانه في آية أُخرى:

﴿يَا بَني ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ ٱتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِأَيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣].

والخطاب هنا موجّه إلى جميع أفراد الإنسان، وقد ذكرنا هذه الآية حتّى لا يُتوهّم أنّ الخطاب خاص بآدم وحوّاء أو إبليس ولا علاقة له بسائر الناس. وفي الآيات السابقة يقول ﴿فمن تبع هداي﴾، وفي هذه الآية يبيّن مصداق اتباع الهداية فيقول ﴿فمن اتقى وأصلح﴾.

وبناءً على هذا يصبح موضوع الهداية التشريعيّة بواسطة الوحي والنبوّة جزءً من تقدير خلق الإنسان، ولا يمكن اسكانه في الأرض من دونها، لانّ ذلك خلاف الحكمة الإلهيّة.

وعلى هذا الأساس فقد أرسل الله رسولاً لكلّ أُمّة:

﴿وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٤].

(٢) طه: ١٢٣.

(٣) الأعْرَاف: ٣٥ و٣٦.

(٤) فَاطر: ٢٤.

فهل معنى هذا أنّه لا بدّ من إرسال رسول إلى كل مدينة و إلى كل مجموعة من الناس تعيش في مكان معيّن أو إلى كل زمان بحيث تكون سلسلة الأنبياء متّصلة ببعضها من حيث الزمان أم يتمّ ذلك بصورة أُخرى؟ ليس في القرآن تصريح في هذا المضمار، وإنّما فيه التعبير بـ «الأُمّة»، ولهذه الكلمة معنى واسع في القرآن الكريم. وقد تخيّل البعض أن «الأُمّة» تساوي المجتمع بمعناه العلمي، ولكنّ الحقيقة ليست بهذه الصورة، فالأُمّة في القرآن علاوة على اطلاقها على شخص معيّن فإنها تستعمل أحياناً بمعنى الزمان، وتستعمل في مجموعة من الناس، وهذا هو القدر المشترك بين موارد استعمالها. فالقرآن مثلاً يعدّ جميع الأنبياء أُمّة واحدة مع إنّهم ليس بينهم اشتراك في الزمان ولا في المكان ولا في العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة، فهو يشير إلى جميع الأنبياء (ع) بقوله:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[٥].

فالأُمّة في القرآن تعني فئة من الناس.

والآن ما هو المقصود من قوله نحن أرسلنا إلى كل أُمّة رسولاً؟

إنّنا لا نستطيع أن نبيّن معناه بدقّة، والشيء الذي نستطيع قوله هو أنّه إذا وجدت مجموعة من الناس منفصلة عن سائر أفراد الإنسان ولم تكن علاقاتها مع الناس الآخرين توفّر لها سبل انتقال المعلومات إليها فإن كلاًّ منهما يحتاج إلى مرشد على حدة. وامّا إذا وجد ملايين الناس وهم يعيشون خلال مئات القرون لكن بينهم علاقات توفّر لهم سبل انتقال المعلومات فيما بينهم، وإذا نزل عليهم كتاب سماويّ فهو سيبقى عندهم فإن هؤلاء جميعاً يعتبرون أُمّة واحدة.

وصحيح أنّنا نجهل كثيراً من الأنبياء لكنّ هذا لا يلحق الضرر بأصل الموضوع.

(٥) الأنبياء: ٩٢.

وتقول بعض الروايات، إن عدد الأنبياء هو (١٢٤) ألف نبيّ (لا علاقة لنا هنا بصحّة سند هذه الروايات أو عدم صحّتها، فالأمر الذي لا شكّ فيه هو ان عدداً كبيراً من الأنبياء قد أُرسل إلى الناس)، ولم يذكر في القرآن إلّا أسماء نيّف وعشرين شخصاً منهم والبقيّة مجهولون بالنسبة إلينا حتى في أسمائهم، وكل ما نعلمه إجمالاً بفضل الآية الكريمة إن كل أُمّة أُرسل لها رسول.

ومن خلال البرهان الذي قدّمناه على ضرورة النبوّة ـ وهو مورد تأييد القرآن كما مرّ ـ يتبيّن لنا أيضاً الهدف من بعثة الأنبياء.

وقد ذكرنا أن الإنسان قد خُلق لكي يختار طريق السعادة أو الشقاء بكامل حرّيته فلا بدّ إذن من تزويده بمعرفة الطريقين، ولّما كان عقله وسائر مشاعره ليست كافية لتشخيص الصواب من الخطأ فهناك إذن طريق آخر لذلك أطلقنا عليه اسم الوحي، وإلّا فإن الإنسان لو لم يستطع تمييز الحقّ من الباطل فهو غير مسؤول بالتأكيد. والله قد خلق الإنسان مسؤولاً أي يختار لكي ينال نتائج أعماله، فلا بدّ إذن ان يكون الله سبحانه قد جعل له طريقاً للمعرفة.

فأول هدف للنبوّة ـ حسب هذا البرهان ـ هو أن يميّز الناس طريق الصواب من طريق الخطأ حتى يختار كل واحد منهم طريقه بوعي وعلم، وبعبارة أُخرى حتى تتمّ الحجّة عليهم.

وهناك آيات في القرآن تؤيّد هذا الموضوع بل تصرّح به، ومن جملتها:

﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيمًا﴾[٦].

ويشير ذيل الآية إلى أنّ إتمام الحجّة عليهم هو من لوازم الحكمة الإلهيّة وقد لاحظنا ذلك في البرهان المتقدّم.

(٦) النّساء: ١٦٥.